النظام الدولى فى القرن العشرين

بقلم محمد عبد المعز نصر

ان نتائج التغير التاريخي لا تظهر مباشرة ، وانما تستلزم من مضى الوقت ما يكفل لها الظهور بدقة وشمول . وقد شاءت الأقدار لأهل القرن العشرين أن يعيشوا فى زمن يحسون فيه بآثار الثورات الاقتصادية والاجتماعية والعلمية التى تفجرت فى الخمسمائة عام الأخيرة وشكلت حياة الدولة الحديثة وبالتالى العالم الحديث . فليس القرن العشرون فى نظمه القومية والدولية سوى امتداد للنظم التى برزت وأخذت تتضح معالمها فى القرن السادس عشر والقرون التى أعقبته . ولكن هذا الامتداد فى سعته وعمقه كاد يتخذ مظهراً مختلفاً لا فى كمه وحسب وانما فى كيفه أيضاً . ويتجلى هذا التغير فى الظروف العالمية مما قد اشتركنا جميعا فى تجربته حين اتخذ العدوان الانجليزى الفرنسى الاسرائيلى من محطة الاذاعة المصرية هدفاً جوهرياً لتدميره . فالتقدم العلمى قد ربط الهواء كما ربط البر والبحر على سطح الكرة الأرضية . ومن ثم كان فى استطاعة المصرى المعتدى عليه أن يسمع العالم أجمعه عن طريق « اللاسلكى » بأن حملة الاستعمار الغربى عليه لم تكن حملة بوليس كما أدعى ايدن ومولِيه ، وانما هى حملة لصوص . واذ أن من عادة اللص الجبان أن يسرق فى الليل ، فقد حرص اللصان ، الانجليزى والفرنسى ، أن يحيطا مصر والعالم بظلام الجهل بأنباء الاعتداء بواسطة قطع صوت مصر المباشر الموجه الى أمم المعمورة جمعاء ... وقد علمتنا تجربة ذلك العدوان أيضاً أن تشابك العالم لا يقف عند اتصال الأذهان بطريق الهواء ، وانما يتحقق كذلك فى دنيا الصناعة والأسواق والمال ، فما أغلقت قناة السويس وتعطل تدفق البترول من الشرق الأوسط على موانئ أوروبا الغربية حتى تخلخلت آلة الحياة وأنذرت الأقوام هنالك بالدمار .... والسلم كالحرب يثبت لنا جميعاً فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار وفى كل جانب من جوانب النشاط الانسانى أن العالم قد أصبح وحدة

محكمة الاتصال وأن سبل هذا الاتصال قد تجاوزت ما كان فى الحسبان أو الخيال عند أجدادنا ممن عاشوا فى القرون الوسطى وماقبلها بل ممن عاشوا فى القرن التاسع عشر . فالطائرة قد يسرت من الأسفار فى اليوم الواحد ماكان يستغرق فى الأزمان الماضية الشهور والأعوام . ومن يطلع على وصف ادريسى للأرض ويرى خريطته التى رسمها لروجار الثانى الصقلى فى منتصف القرن الثانى عشر يتبين حقيقة التغير فى إدراك الانسان المعاصر لحقائق العالم وخفاياه فى القرن العشرين .

ويهمنا أن نبين هذه الحقيقة الكبيرة وهى أن العالم قد أصبح وحدة مترابطة الحلقات وأن كل حلقة منها تعتمد على الأخرى اعتمادا يحول دون الاكتفاء الذاتى أو الاستقلال التام . فإن اكتناه هذه الظاهرة وتعمق مغزاها يجعلنا نتساءل عما اذا كان نظام الحكم الدولى قد تطور التطور المناسب لهذا الاتجاه العالمى القوى نحو التوحيد فى صلات العقول والبطون والجيوب ، أم أنه لايزال يحتفظ بالأشكال التى اصطنعها فى عهود العزلة والانفصال . ولعلنا فى مصر أكثر الشعوب احساساً بأهمية التلازم بين المظهر والمخبر ، اذ أن تطور أجسامنا من النحافة الى السمنة كثيرا ما يفرض علينا أن نغير أثوابنا ونجعلها فضفاضة بعد أن كانت محبوكة . ومثل الدول فى القرن العشرين مثل الأفراد تداخلت وامتدت حدودها بامتداد مصالحها فى ظل هذه الثورة الاقتصادية العلمية ، وبقى عليها أن تغير أثوابها السياسية وأن تجعلها فضفاضة لتتسع لهذا الامتداد المادى وتعين المجتمع الانسانى على أن يكون مجتمعاً مفتوحاً متحرراً من السدود والقيود .

ويواجه القرن العشرون هذا المشكلة المستعصية ، فقد تهيأ للانسان فيه من قوى العلم ما جعله الوارث المستثمر لكنوز الأرض وثروتها فى المشرق والمغرب ، وذلك فى الوقت الذى احتفظ فيه بأشكال سياسية ضيقة قائمة على العاطفة الحماسية والمصلحة الذاتية . هذه الأشكال السياسية هى ما يعرف بالدول القومية التى ظهرت فى أوربا وقويت فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ووجدت من الثورة الأمريكية فى القرن الثامن عشر ما أكد حقيقتها

وأشاع مثالها العملي بين الشعوب ، ومن الثورة الفرنسية ما أضفى عليها من شعارات التحرر والمساواة قداسة لم تنل منها غزوات نابليون وأمبراطوريته بل نقلتها الى الأعداء أنفسهم فردد صلواتها في القرن التاسع عشر فخته وهيجل وتريتشكه في المانيا ، ومازيني في ايطاليا ، ورينان في فرنسا ، ورددها ساسة القرن العشرين وفلاسفته القوميون بأقوى ما يكون الإيمان في المانيا وايطاليا والولايات المتحدة وروسيا ، ثم شاركت آسيا وأفريقيا في هذه العبادة القومية مشاركة سجلت ثوره اليقظة في العالم القديم بعد نوم طويل . ففي كل مكان ترتفع الصيحة التي نعرف في مصر نغماتها جيداً « يا ابن بلدي » و « يا بنت بلدي » وتجد الدول الصغيرة في هذه الصيحة اثباتا للشخصية ودعوة للتجمع دفاعا عن النفس وتحقيقا للمعيشة الطيبة ، كما تجد فيها الدول الكبرى نداء الذئب لأخيه الذئب ليتعاون وأياه في اقتناص الفريسة ، وفي كلا الاتجاهين – الاتجاه الانكماشي والاتجاه التوسعي – تعبير عن العاطفة القومية تعبيرا مناقضا لما أصبح عليه حال العالم اليوم من اعتماد متبادل في شئون الحياة والفكر الانساني .

ولقد قاسى القرن العشرون من النظام القومي الذى ساد في الحضارة الغربية خاصة منذ أواخر القرن التاسع عشر ومن النظام الأمبراطوري الذى اتخذ القومية سنداً لتحقيق مصالحه الطبقية في الحصول على المواد الخام واستثمار الأموال واحتكار الأسواق والاستيلاء على القواعد والمراكز الاستراتيجية في الأمم الآسوية والافريقية الضعيفة – كما أصاب مصر من جرائه في الاحتلال البريطاني في سنة ١٨٨٢ وكما تجدد من عدوان عليها في محاولة الاستعمار المشترك سنة ١٩٥٦ . ومن الطريف أن أنصار القومية الاستعمارية في الغرب يذهبون الى أن للدولة المتفوقة حق التوسع والنمو على حساب الأعضاء الضعيفة من أمم العالم ، بل أن الاستعمار في هذه الحالة لايعتبر حقاً وحسب وإنما يعتبر واجباً عليه المصير الواضح ... وحتى الولايات المتحدة التى ذاقت استعمار البريطانيين وكانت تفاخر بأنها رائدة من رواد الحرية في الغرب رأى ساستها ومفكروها ازاء اغلاق التوسع في حدودها البرية الغربية قرب نهاية القرن التاسع عشر أن رسالة الحضارة تدفعها الى التوسع خارج حدودها في نصف الكرة الغربي ،

بل نحو الغرب كذلك فى جزر المحيط الهادى . ولقد بلغت الولايات المتحدة أقصى غايات التوسع فى هذا الاتجاه حين استولت على جزر هاواى بين سنة ١٨٩٣ وسنة ١٨٩٨ ، وعلى جزر الفليبين التى تنازلت عنها أسبانيا نتيجة الحرب معها بمعاهدة باريس سنة ١٨٩٨ . ولقد ألزم هذا التوسع الولايات المتحدة بالدفاع عن منطقة شاسعة تبعد خمسة آلاف ميل بحرى غربى هونولولو وسبعة آلاف ميل بحرى غربى كاليفورنيا ، ولكن تبعد سبعمائة ميل من ساحل الصين ومائتين وخمسين ميلا فقط من فورموزا ، وألف وسبعمائة ميل من يوكوهاما وأقل من ألف وأربعمائة ميل من سنغافورة . وأن دائرة مركزها مانيلا ، وقطرها حول ١٥٠٠ ميل ، تحيط بالأقليم الصناعى فى اليابان ، وجميع كوريا ، والجزء الرئيسى من الصين ، والهند الصينية الفرنسية وبرما والمالايو وجزر الهند ، ولقد وضعت الولات المتحدة نفسها باستيلائها على الفليبين فى المركز الجغرافى لأمبراطوريات آسيا الشرقية ، وفى الملتقى الاستراتيجى لخطوط المواصلات . ولم يسع جون هاى ، الوزير الأمريكى ، الا أن يقدم بعد ذلك فى سنة ١٩٠٠ مذكراته عن « الباب المفتوح فى الصين » وأن يرسل خطاباً دورياً يعلن فيه أن سياسة الولايات المتحدة تسعى الى المحافظة على الوجود الصينى الأقليمى والادارى (١).

وهكذا ظهر أن مسرح السياسة الدولية لا يتسع الا للامبراطوريات المتسابقة فى طلب المزيد من الممتلكات ومناطق النفوذ والاستثمار . وافتتح القرن العشرون على دقات ناقوس استعمار قوى جديد من امبراطورية المانية نامية متطلعة فى الغرب وامبراطورية يابانية ناشئة طموحة فى الشرق . وحاولت الامبراطورية البريطانية أن تتكيف لمواجهة هذا الخطر : فذهب ساستها الى أن دم الجزيرة البريطانية فى وسعه أن يتمثل الدم الأبيض فى المستعمرات وأن يكون معه وحدة عضوية على شرط الا يحن دم الكندى الفرنسى الى فرنسا أو دم الافريقى من البوير الى هولندا وانما يقتصر

(١) Walter Lippmann — U. S. Foreign Policy, New York, Pocket Books, 1943 p. 17

على الامتزاج بدم البريطانى فى الجزيرة البريطالية ويشترك فى الدفاع عنه أمام خطر الاستعمار المنافس الجديد . فأفتى عباقرة التوفيق البريطانيون بأن القومية فى معناها تتعدى المفهوم الذى قصده ماتزينى وبسمارك من اشتمالها على أبناء الشعب الواحد المشتركين فى أسلوب أشبه بالقالب المنسجم للعادات والتقاليد والسلوك ، وأنها قادرة على تمثل الأنواع المختلفة من الثقافات طالما تخضع للون الغالب منها . ثم ذهبوا الى أبعد من هذا فى أنفسهم فى أنهم قرروا عدم الاقتصار على أن يشركوا معهم اللون الأبيض فى المستعمرات فى مهمة الدفاع عن الامبراطورية ، بل أن يجندوا أبناء المستعمرات الملونة كذلك فى صراع الأوروبى الأبيض على الامتلاك والاقتناء والقوة والسلطان فى عالم الانسان .

ولقد كان أمرا محتوما أن يؤدى هذا الصراع بين الامبراطوريات الأسرية والامبراطوريات الاستعمارية الى الاحتكام الى الحرب لتقرير مصير مناطق الاستغلال فى آسيا وافريقيا ، واقرار نظام جديد فى العلاقات الدولية يساير حقائق التطور الذى حدث بين معركة واترلوا سنة ١٨١٤ ومعركة بلجيكا سنة ١٩١٤ ، وقد حدثت الحرب ، وهى دائما حسب نظرية الدولة الكلاسيكية مظهر من سيادة الدولة واعلان كلمتها وفرضها فى العلاقات الدولية قانونها الخاص وتعبير عن ارادتها وحريتها . وكانت بدأ دورة الحرب فى القرن العشرين . ولكن لم تنته بالسرعة التى توقعها الالمان لأضطرارهم الى الحرب فى جبهتين ، ولاعتمادها على القوى الآلية المدمرة التى انتجها الفن والابتكار الانسانى فى عالم الصناعة الحديثة والتى استتبعت اسرافا باهظا فى القضاء على حياة الجند فى ميادين القتال . واكتشف المحاربون أن الحرب لم تعد فى ظل الآلة الفنية الصناعية الجبارة نوعا من فروسية العصور الوسطى ، بل أصبحت إفناء أعمى لحياة الانسان . وقد فرضت هذه التجربة القاسية على أذهان الساسة والمفكرين العمل على الحد من عبء الحرب الحديثة أثناء المعركة وفى اعقاب المعركة . وانتهى كثير من الأحرار الى نتيجة مناقضة للقضية التى دفعت بالناس الى الحرب ، وهى أن نظرية السيادة المطلقة التقليدية للدولة التى ترى فى الحرب التعبير النهائى لها لم تعد متجاوبة مع ظروف القرن العشرين وأنه يجب اقامة سلطة

دولية تحد من سلطة الدولة القومية وتنظم العلاقات الخارجية على أسس من العدالة والمساواه الدولية . وهكذا بدأت الحرب تعبيرا عن المبدأ القائل بأن سلطة الدولة هي السلطة النهائية ، وانتهت بالمبدأ القائل بأن العالم المعاصر لا بد له من سلطة عليا فوق سلطة الدولة القومية .

وان هذا الدرس فى السياسة الدولية الذى أكدته الرغبة فى تجنيب البشر توالى الحروب المبيدة عليه ، والذى ولدته تجربة العمل المشترك بين الحلفاء أثناء الحرب وتصميمهم على مواصلة التعاون فى السلم مثلما فعلوا فى الحروب ، والذى أملته على الساسة والمفكرين آمال جماهير الناس ومطامحهم فى حياة آمنة مستقرة ، قد وجد تطبيقا عمليا فى ميثاق عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى وميثاق هيئة الأمم المتحدة فى الحرب العالمية الثانية . وأصبح القرن العشرون بانشاء هاتين المنظمتين الدوليتين منفردا بين العصور الحديثة بهذا التجريب فى اقامة نظام دولى على نطاق شامل عالمى .

وفى الواقع أن هذا النظام الدولى الذى أخذ القرن العشرون فى تجريبه يحمل فى ثناياه خصائص مراحل التطور التى يمر بها البشر فى ادارة شئونهم الداخلية والخارجية . فكلا المؤسستين الدوليتين — مؤسسة جنيف ومؤسسة سان فرانسسكو — وان كانتا قد نشأتا فى جو من الحرب والاحساس بالخطر ، الا أنه ما كان من الممكن اتفاق الدول على قيامهما لولا أن ميثاقيهما قد تضمنا عدم الاعتداء على سيادة الدولة القومية التقليدية ، والاعتماد على رضاها فى الانتساب الى المنظمة الدولية ، والمحافظة على هذه السيادة . فالدول المشتركة فى عصبة الأمم وفى هيئة الأمم المتحدة قد اشتركت فيهما كدول لا شعوب وممثلوها فى نشاطهما ممثلو دول لا ممثلو شعوب ، ومن ثم فعصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة جمعيتان أو هيئتان للأمم ممثلة بصفتها السياسية لا بصفتها الاجتماعية . (١)

---

(١) HARRIS, W. Wilson — The League of Nations London, Benn Ltd, 1929 P.5

ويحسن بنا أن نقف عند هذا الحد من المقارنة بين عصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة كأداتين لتحقيق النظام الدولى فى القرن العشرين ، فلقد أحاطت بكل منهما ظروف أكدت أن العامل الحاسم فى تكوين سلطاتهما التنفيذية يرتكز على سلطة الدول العظمى ، مما ضمن لها الكراسى الدائمة فى مجلس العصبة ، ومجلس الأمن فى هيئة الأمم ، وضمن لها التفرد بالبت فى المسائل ذات الصبغة الأساسية فى السياسة الدولية ، ولكن الظروف الدولية الأخرى المتغيرة قد شكلتهما تشكيلا مختلفا فى كثير من التفاصيل ، فعصبة الأمم قد تقررت فى اجتماع الثلاثة الكبار — ولسون الأمريكى وكليمنصو الفرنسى ولويد جورج البريطانى فى يناير سنة ١٩١٩ ، ولكن التقرير النهائى لتنظيم هيئة الأمم المتحدة قد وضع فى اجتماع ثلاثة كبار أخر — روزفلت الأمريكى وستالين الروسى وتشرشل البريطانى — فى يالتا فى فبراير سنة ١٩٤٥ ، معلنا أن سلطة أوربا فى ميزان القوى الدولى قد أخذت فى الأفول ، وأن مركز الجاذبية والقوة فى العالم المعاصر قد أصبح متقاسما بين الولايات المتحدة وروسيا مما ترك أثرا جوهريا فى مسرح السياسة الدولية وطبيعة العلاقات بين الدول فى منتصف القرن العشرين وفى ضوء هذا التغير فى ميزان القوى الدولى ، أصبحت المنظمتان الدوليتان من ناحية النظر والتطبيق تمثلان عهدين وأن قصر بينهما الزمن الا أنه قد بعدت بينهما الشقة فى مراحل التطور.

فعصبة الأمم قد تأثرت من نشأتها بعد الحرب ومن تضمين ميثاقها معاهدة فرساى وجعله جزءا منها ، فوادها تكون الستة والعشرين مادة الأولى من تلك المعاهدة . ولقد كان اصرار « ولسون » على تضمين نص ميثاقها المعاهدة ، ليضمن موافقه البرلمان الامريكى عليه ، سببا من أسباب تحميل العصبة أوزار تلك المعاهدة الجائرة المتحيزة . ومن سخريه القدر أن مجلس الشيوخ الأمريكى رفض الموافقة على ميثاق العصبة وأعلن عودة الولايات المتحدة الى عزلتها التقليدية وتخليها عن تحمل مسئوليات حرب رأى أعضاء المجلس أنهم انما دخلوها بدافع من رجال البنوك الدوليين والرأسمالية الدولية والدبلوماسية البريطانية . وذهبت بذلك جهود ولسون هباء من ناحية محاولة اشتراك أمريكا

فى هذه المنظمة الدولية . وكان انسحاب الولايات المتحدة من الاشتراك فيها الركن الأول فى تقويض صفة العالمية عنها ، بالرغم من صفتها الدولية . ولم تكن الولايات المتحدة هى الدولة الكبرى الوحيدة التى تخلت عن العضوية فى عصبة الأمم وانما افتقدت اشتراك روسيا والمانيا فى بادئ الأمر . واستمر الحال كذلك على هذا المنوال فلو أن المانيا انضمت الى العصبة فى سنة ١٩٢٦ ، وانضمت روسيا اليها فى سنة ١٩٣٤ ، إلا ان المانيا كانت قد تركتها عند دخول روسيا . كما أنها ضعفت بانسحاب اليابان فى سنة ١٩٣٣ وقد انتهى بها الأمر لأن تكون أداة تنفيذ لمآرب بريطانيا وفرنسا ، ومحافظة على الوضع الراهن الذى خلقته معاهدة فرساى ، وفقدت الصفة الجوهرية التى أريد بها أن تكون العصبة أداة تغير سلمى فى العلاقات الدولية كما تمنى ذلك ولسون وتركت المجال لحل المشاكل الدولية بالعنف وحده ، والمسرح الدولى ميدانا للفوضى السياسية . ولقد لعبت فرنسا دور الأسد فى التآمر على السلامة الدولية بأن عقدت المعاهدات الدفاعية مع دول أوربا الوسطى والشرقية التى خلقتها معاهدة فرساى واقنعت تلك الدول بأن أى اصلاح لمشاكل الأقليات أو المشاكل الجغرافية التى نجمت عن معاهدة فرساى انما هو اعتداء على كيان تلك الدول ذاته ؛ واتخذت هى وانجلترا من العصبة وسيلة لالقاء ضوء من القداسة والعدالة الدولية على تركة اغتصبها اللصوص البريطانيون والفرنسيون وحرصوا على أن يمنعوا سواهم من أن تقترب أيديهم اليها (١) .

ولكن انهماك بريطانيا وفرنسا فى اجتناء ثمار معاهدة فرساى المحرمة واحتماءهما بعصبة الأمم لتغطية المشاكل الأوربية والدولية السياسية والاقتصادية والاجتماعية لم يمنعا الحركات السياسية المذهبية المضادة من السيطرة على المسرح الأوربى وبناء الدولة المذهبية فى ايطاليا والمانيا بعد أن قامت فى روسيا . وظهر بذلك عامل جديد فى السياسة يقوم على الصراع الفكرى الى جانب الصراع بين القوى الدولية التقليدية . ومما عقد الموقف أن هذه الحركات الجديدة فى أوربا كانت تؤمن بالحرب وتستعد لها فى الوقت الذى اطمأن فيه

(1) JOAD, C. E. M. — Why War, Penguin Books Ltd, 1939 p. 166.

حلفاء الى انتصارهم وتشتت حلفهم بانسحاب الولايات المتحدة واتجاهها الى عزلتها التقليدية ، وبتخلي بريطانيا عن ضمانها لحدود فرنسا بعد أن تخلت الولايات المتحدة عن ذلك . وجاء تعقيد الموقف الدولى كذلك نتيجة لأن الفاشية والنازية قد مجدا الحرب كوسيلة لإحياء الشعوب وبعث نهضاتها وذهبتا الى أن العلاقات الدولية لاتقوم إلا على مبدأ التعارض بين «الصديق» و«العدو» وعلى مبدأ هيجل الاخلاق فى أن الأخلاق الاجتماعية محدودة بحدود الدولة القومية ولا تجاوز تلك الحدود الى ماوراءها من دول أخرى . وتلخص موقف الفاشية والنازية فى انكار قيام نظام دولى إلا على أساس من الغزو ، كما وعد بذلك هتلر لتحقيق نظام أوربى يضمن السلام لألف عام . وأمام هذا التصميم من المانيا النازية وايطاليا الفاشية واليابان العسكرية على الاستعداد للحرب وعقد حلف مشترك تحت ستار الميثاق المعادى للشيوعية الدولية فى سنة ١٩٣٦ ، تضاءلت جهود عصبة الأمم فى حفظ النظم القائمة خاصة بعد أن عجزت عن مقاومة عدوان اليابان فى منشوريا سنة ١٩٣١ وعدوان ايطاليا فى الحبشة سنة ١٩٣٦ وعدوان المانيا فى تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٣٨ وسنة ١٩٣٩ . ولم تقترب الحرب العالمية الثانية من موعد اعلانها حتى كانت عصبة الأمم مجازا من المجازات ، وذهبت أدراج الرياح وسط محاولات الانقاذ اليائسة فى اعادة تنظيم العالم على أسس دولية أصلح وأبقى .

وتجددت محاولة اقامة نظام دولى أقرب الى ارضاء حاجات العالم الى الأمن والسلام مرة أخرى أثناء المعارك التى شملت المدنيين والعسكريين على السواء فى الحرب العالمية الثانية . فبعد أن كان الجنود المحترفون هم وحدهم وقود الحروب السابقة فى تاريخ البشر امتد الميدان الى الشيب والشبان فى عقر ديارهم بل اتخذ فى نهاية الحرب مظهرا مرعبا ، حين قضت القنبلة الذرية فى بدأ تجربتها على مدينتى هيروشيما ونجازاكى فى لمح البصر ، وجعلت بذلك طورا جديدا من أطوار الحرب التى لاتبقى ولا تذر . ولهذا حرص روزفلت على ألا تنتهى الحرب قبل أن يتفق وروسيا على الأمور المعلقة التى لم يستطع الاتفاق عليها (بشأن المنظمة الدولية الجديدة) مندوبو روسيا وامريكا وبريطانيا فى مؤتمر دمبارتون أوكس ، فى واشنطون فى سبتمبر سنة ١٩٤٤ . فأولئك المندوبون

لم يستطيعوا الاتفاق على بعض الجوانب الجوهرية لاجراءات الاقتراع. وقد اتجهت أفكار روزفلت الى عقد مؤتمر ثلاثى منه ومن ستالين وتشرشل لحل المسائل الدولية المعلقة وفى مقدمتها مسألة هيئة الأمم المتحدة. وتم ترتيب هذا الاجتماع فى بالتا فى القرم فى فبراير سنة ١٩٤٥ ، وقد وافق فيه الروس على كل شئ طالب به الامريكيون فى مؤتمر دمبارتون اوكس ، فأولا قبلوا طريقة الاقتراع فى مجلس الأمن التى اقترحها الامريكيون ، وثانيا سحبوا مطالبتهم بأن يكون لهم ستة عشر صوتا فى « الجمعية العامة » وأخذوا بدلا من ذلك أصواتا وممثلين اضافيين من الأوكرين وروسيا البيضاء. وثالثا — وافق ستالين على اقتراح روزفلت بأن جميع الأمم التى كانت فى حرب مع ألمانيا عند أول مارس سنة ١٩٤٥ قد تصبح أعضاء فى هيئة الأمم المتحدة — وهذا تنازل هام مكن للولايات المتحدة أن تقوى مركزها فى الجمعية العامة عن طريق التمثيل الكامل لأمريكا اللاتينية(١) .

ولو أننا تأملنا تركيب الأمم المتحدة ونظام عملها ، لوجدناه قائما على توفيق بين مطالب القانون ومطالب القوة من ناحية ، وبعبارة أخرى حاول أن يرضى مبدأ المساواة بين الأمم فى الجمعية العامة للهيئة بأن ساوى بين الدول المشتركة كبيرها وصغيرها وذلك بإعطاء كل منها صوتاً واحداً ، وجعل قرارات الجمعية بالأغلبية العددية ، ولكن ميز الدول الكبرى فى مجلس الأمن أو السلطة التنفيذية للهيئة وذلك بجعل خمسة دول منها أعضاء دائمين فى المجلس ووزع الستة الأعضاء الأخر فى مجلس الأمن بين دول العالم جميعاً تداول تمثيلهم بطريقة تخضع لاعتبارات جغرافية ونيابية دولية. ثم اشترط اجماع الخمسة الأعضاء الدائمين لنفاذ أى قرار من القرارات الهامة فى العلاقات الدولية. ومعنى هذا الإجماع أن رفض أى عضو من الأعضاء الخمسة لقرار من القرارات يبطل عمله وتنفيذه. وكأن هذا النظام قد قصر فى الوقت الذى يعترف فيه بتساوى الدول الأعضاء فى السيادة القومية من الناحية النظرية السيادة الحقيقيه الفعالة على خمسة دول وحسب ، أضفى عليها صفة الدوام « والعقد والحل » فى الشئون العالمية على حد تعبير فقهاء المسلمين .

---

(١) Link, Arthur · American Epoch, New York, Alfred A. Knopf, 1955 p. 560 - 3.

ولا شك فى أن تنظيم هيئة الأمم المتحدة قد تدارك الكثير من النقص فى تنظيمات عصبة الأمم ، ولاسيما فيما يتصل بمنح مجلس الأمن سلطات فعالة بشأن رد عدوان المعتدى على السلام العالمى ، وتضمينه ميثاق الهيئة من احتياطات عسكرية وبوليسية خلا منها ميثاق عصبة الأمم الذى افترض حب العالم للسلام وتمسكه به واستند الى مساهمة الدول الأعضاء مساهمة تلقائية فى وقف عدوان المعتدين . ولكن اشتراط اجماع دول كبرى خمس لتنفيذ قرار من القرارات الدولية الهامة ، مثله مثل اشتراط اجماع الدول الأعضاء جميعاً كما قضى بذلك ميثاق عصبة الأمم ، أمر معوّق لأداء هيئة الأمم المتحدة غرضها فى عدالة تتفق وما استهدف تحقيقه ميثاقها ، وأن مسألة الحرب فى كوريا والعدوان الثلاثى على مصر فى المدة الأخيرة يقومان مثالا حيا على فساد هذا النظام فى الادارة الدولية . فلقد عدت الولايات المتحدة أنه من حسن الحظ فى مشكلة كوريا سنة ١٩٥٠ أن تكون روسيا متغيبة عن اجتماعات مجلس الأمن ، فقادت حركة اتخاذ قرار بأن غزو الشمال لجنوب كوريا كسر للسلام وطلب انسحاب القوات الى ما يوازى خط عرض ٣٨ . فووفق على الاقتراح ب ٩ أصوات الى ١ (يوجوسلافيا) ... ثم عملت بعد ذلك على اتخاذ قرار بمعاونة الأمم المتحدة لحكومة جنوب كوريا فى رد الاعتداء ووفق على القرار ب ٧ الى ١ . فيوجوسلافيا قالت « لا » أما ممثلا مصر والهند فقد امتنعا عن التصويت لعدم حصولهما على تعليمات من حكومتيهما ، وفى نفس اليوم أعلن ترومان أنه أمر قوات الولايات المتحدة الجوية والبحرية بمساعدة كوريا الجنوبية (يونيه سنة ١٩٥٠) . وأما عن العدوان الثلاثى على مصر فقد اتخذت بريطانيا وفرنسا من امتياز حق رفض قرارات مجلس الأمن ، وتعطيل الادارة الدولية من العمل فى أزمات الأمن الدولى ، وسيلة لحماية العدوان وتبريره وقتل السلام فى سبيل مصلحة الاستعمار الذى يقوم وصياً فى مجلس الامن على رعاية العدالة والحق فى المجتمع العالمى الكبير .

ولقد دعا هذا النظام المتحيز فى ادارة مجلس الامن الى كثير من الصيحات والمحاولات لتعديله ، ولكن ميثاق الهيئة يشترط موافقة الأعضاء الدائمين على كل تعديل جوهرى . ودلت التجربة أن أصحاب الامتياز قلما يتنازلون

عن امتيازهم طوعا واختياراً . غير أنه يجدر بنا ألا نحكم على نظام هيئة الأمم من الناحية النظامية الا اذا أخذنا فى الاعتبار أن مسألة صياغة نظام الهيئة قد تمت أثناء الحرب قبل أن تظهر التعقيدات الخاصة بتسوية مشاكل الصلح فى المانيا واليابان ودول أوربا الشرقية وغيرها ، وأن أى نظام لايعمل فى ذاته فى الفراغ وانما يتقرر أسلوب عمله بالظروف المحيطة به ، ومن ثم ينبغى أن نلاحظ أن نظام الهيئة مرتبط بنظام القوى فى العالم المعاصر . وإذ أن الدول الكبرى لم تعد خمساً أو ثلاثاً وانما هى اثنان — روسيا والولايات المتحدة — وأنهما أصبحتا مركزى جاذبية فى ميزان القوى الدولى يلتف حولهما باقى دول العالم تحقيقا للرغبة فى التجمع التماسا للأمن النسبى فى عالم عجزت هيئة الأمم المتحدة أن تحل مشاكله بأسلوبها المعقد ، فقد حدثت رجعة قوية الى فكرة الأحلاف الأقليمية والخاصة التى حكمت السياسة العالمية فى الثلاثة قرون الأخيرة التى حرصت الولايات المتحدة على تضمينها ميثاق العصبة لتحمى العمل داخل المجموعة الأمريكية وتبقى عليه . وكما هددت المعاهدات الخاصة بين الدول كيان عصبة الأمم ، فإنما تهدد الأحلاف الآن كيان هيئة الأمم المتحدة . فالولايات المتحدة التى كانت بين الحربين تؤمن بالعزلة وعدم الاشتباك فى أحلاف كوسيلة من وسائل المحافظة على سيادتها القومية وحريتها فى التصرف عادت فأقبلت عليها بعد الحرب العالمية الثانية اقبالا إيجابياً فعالا ، بدافع من مصالحها التى عمت العالم بأسره والتى جعلت الولايات المتحدة تدعى أن أمنها فى أمن كل منطقة ترى هى أنه يهمها أمرها [1]. وقد أخذت شبكة هذه الأحلاف تعم الشرق والغرب وأصبح عددها يتحدى الحصر فى ميادين السياسة والاقتصاد والاجتماع والدفاع والثقافة وغير ذلك مما حمل ميثاق الهيئة عبء تشجيعه من الناحية النظرية . والجامعة العربية انما هى حلف من هذه الأحلاف الأقليمية . ولكن أهم هذه الأحلاف هى حلف الأطلنطى وحلف بغداد وحلف جنوب شرق آسيا بين الكتلة الغربية وحلف وارسو بين الكتلة الشرقية . ولو أن هذه الأحلاف قصد بها تأييد أغراض هيئة الأمم المتحدة حسب نص

(١) MAXEY, Chester — Political Philosophies p. 692

الميثاق فقط ، لفهم الأمر ، ولكن البيانات التي أدلى بها مندوبو الدول التي وقعت ميثاق الأطلنطي تذكر بصراحة عجز الأمم المتحدة عن حفظ الأمن العام وضرورة الاستعاضة عنها بأحلاف بين مجموعات منسجمة في المصالح ووجهة النظر ولم يقتصر الأمر على التحالف الإختياري بين الدول ، وإنما تظهر نزعة قوية في المعسكر الغربي بقيادة الولايات المتحدة نحو تكتيل العالم وتجميده في أحلاف مواليه عن رضى أوكره . ومن الملاحظ بعد الحرب العالمية الثانية أن الدول الكبرى على وجه العموم تعامل فكرة السيادة القومية التقليدية بخشونة وقسوة ، ومن لم يطأطئ الرأس ويتبع الدولة القائدة لقي من أساليب الهدم لنظامه الداخلي ما ليس في الحسبان ، فمن اثارة للمؤامرات والانقلابات ومن تهديد بالعنف ومن مقاطعة في الاقتصاد ومن اغراء بالدولار وغير ذلك .

ولكن وسط هذا الجو الذي ينذر بالعودة الى الفوضى السياسية التي تنجم عن الأحلاف والاعتماد على القوة المادية في السياسة الدولية ، تظهر قبسات من نور وأمل تنبعث من العالم القديم في آسيا وأفريقيا . فدول هاتين القارتين (وقد استيقظت من النوم الذي فرضه عليها الإستعمار الغربي) تبرز إلى الوجود قوة تبشر بعالم حضاري له من مقاييس التعايش السلمي ما لا يستطيع الغرب بطبيعة حضارته أن يمارسها أو يصبر عليها . ومؤتمر باندونج جدير بأن يصبح في المستقبل نقطة تحول في تاريخ الحضارة الإنسانية وعلماً من أعلام الطريق .

كما أن إيمان الانسانية المتجدد في امكان قيام نظام عالمي منذ القدم لابد وأن يجد يوماً ما طريقه الى الوجود بعد أن ينتهي الغرب من حقبته التاريخية وينزوي خجلا من آثامه قبل الإنسانية . وأن أحلام رجال في تحقيق السلام مثل وليام بن William penn والأب سان بير Abbé Saint-Pierre وروسو Rousseau وكانت Kant وجراهام والاس Graham Wallace ولاسكي Laski وغيرهم من قادة الإنسان في بحر الحياة اللجي المدلهم سوف تصبح حقائق بعد الانصهار في آلام التجارب التي تذكر الإنسان في دنياه بيوم الحساب في أخراه .

ومن يدر كذلك ؟ لعل الإسلام في يقظته من المحيط الأطلسي الى المحيط الهادي ، يبني لبني الإنسان حضارة جديدة نبيلة كما فعل ذلك من قبل .